الأخبار ■ الاثنين 5 تشرين الثاني 2012 العدد 1851

زياد الرحباني القدوة

هيفاء بيطار*

من الصعب التحدث عن زياد الرحباني، إنّه أشبه بمحاولة القبض على الهواء أو إمساك حزمة من نور.

لا يحتاج مُبدع مثل زياد إلى شهادتي، ولستُ بصدد التحدث عن موهبته وعبقريته، لكن ثمة جانباً مهماً جداً في شخصيته أحب أن أشير إليه وأحلله، وهو أنّ هذا الرجل الاستثنائي هو قدوة لجيل من الشباب العربي المُعّذب والذي يفتقر إلى القدوة.

لقد تابعتُ باهتمام كبير المقابلتين اللتين أجراهما الإبداعي المميّز غسان بن جدو مع زياد الرحباني، وحرصتُ على ألا يرف جفني أو يشرد انتباهي للحظة، كي لا تفوتني الكلمات الكثيفة المقتضبة لزياد الرحباني الذي شغلني كما

> يدعونا لنعرف أنه يمكن للعين أن تقاوم مخرزاً إذا كانت نافذة لروح حرة

شغل الملايين من محبيه في حل بعض الألغاز في كلامه. أعترف بأنني حرصت أن أحضر كل حلقة أكثر من مرة كي أكتشف عظمة هذا المبدع.

إذا أردتُ أن أقلد أسلوب زياد في الكلام، أقول دون تردد وبقناعة تامة: إنّ الشيء الوحيد الذي يبدو مستحيلاً هو أن يكون زياد رجلاً عادياً. لقد قرأت ذات مرة أنّ تاريخ البشرية يختار من وقت لآخر أفراداً معنيين لخوض تجارب أو اختبارات فظيعة، واستشهد الكاتب بشخصيات مثل دوستويفسكي، وجان دارك، وغيرهما.

وأسمحُ لنفسي بأن أضيف شخصاً مثل زياد الرحباني، إذ رغم موهبته العالية وموسيقاه التي أعجز عن وصف سحرها، فإنّ عظمته تكمن في الثورة الحقيقية التي فجرها في أعماله، ثورة الكرامة والحرية والعدالة والحب، في كل كلمة كتبها أو لحنها وفي كل نغم ألّفه، هناك دوماً ثورة كرامة، هناك عملية تحرير للإنسان من كل قوى الظلم والاضطهاد والجهل التي تطبق عليه. زياد رجل مُضاء من الأعماق بنور الحق والحياة الكريمة، لا تشعر وأنت تستمع إلى كلماته بأنّ هناك موسيقى وهناك رجلاً، فزياد هو الموسيقى، هو «فيلم أميركي طويل»، و«بالنسبة لبكرة شو»، و«أبو علي»... وكل أعماله. عليّ أن أعترف بأنّني حين كنتُ طالبة في كلية الطب، كنتُ واحدة من آلاف من الطلاب والطالبات نضع في حقيبتنا الدراسية كاسيتات زياد الرحباني ونتناقلها ونهديها لبعضنا البعض... لم نكن ندرك أنّه قدوة لنا وأنّه يمثل ويجسد ما نعاني منه، وما نتوق إليه.

كنا نتحلق حول آلة التسجيل ونضحك من كلام الأخ رشيد، ولم نكن نملك الخبرة ولا الثقافة الكافية لنفهم تلك النشوة الروحية والفكرية والوجدانية التي تدخلنا فيها موسيقى وكلمات زياد الرحباني، كان قدوتنا دون أن نعرف. كان لسان حالنا دون أن ندرك. كان لديه ما يقوله دوماً لأنّ أصالة موهبته تنمو ليس فقط من روحه، بل من الحياة، من التجارب الحياتية. كنا نشعر كيف تتفتح براعم روحنا المنكمشة بالخوف. موسيقاه كانت تبث الثورة في أرواحنا وسلوكنا. لقد علمنا الطريق الصحيح لاستيقاظ الكرامة والأهم الإيمان بعظمة الحياة...

إنّ بث الثورة في النفوس هو الفعل الأروع للفن، وهذا ما فعله زياد الذي يدهشنا كونه منيعاً في وجه أمراض العصر... كيف أمكن لمراهق عاش جنون الحرب الأهلية في لبنان وكان شاهداً على الطائفية والفساد والقتل والخيانة، أن يبقى متوازناً وسط هذا الخراب؟ كيف أمكنه وهو لا يزال في العشرينيات من عمره أن يقبض بأصابعه المشعة بطاقة الموهبة، على القوى المجنونة للقتل والطائفية ويحولها إلى موسيقى رائعة، متجاوزاً نفسه، متجاوزاً أسرته، وخارجاً من عباءة العظيم عاصي الرحباني... محققاً ذاته كما لو أن وجوده يتأرجح بين حلم وحلم؟ نشعر ونحن نصغي لموسيقاه بأنه رجل ينتقل من الحلم إلى الحياة، ومن الحياة إلى الحلم.

كم عدد المبدعين الذين لا ولاء لهم إلا للفن وللإنسان؟ كم عدد المبدعين الذين أداروا ظهورهم للمجد الدنيوي ولعطايا الحاكم! وكم عدد المبدعين الذين كانوا بسلوكهم اليومي صوت الحق الصارخ في عالم القمع والاستبداد والفساد...

لقد عاش زياد متوحداً مع الموسيقى كمشروع حياتي وإنساني، وطنه الحقيقي الفن الذي يحرر الإنسان من الداخل، ويثوّر أعماقه بثورة الحرية والكرامة...

لم أجد فناناً ومبدعاً سخر من الطغاة كما فعل زياد، وحتى ذلك الدوار الذي تدخلنا فيه بعض مقطوعاته الموسيقية والتي للوهلة الأولى تبدو أنها تفتقر إلى التناغم، كما شعرتُ في المرات الأولى التي استمعت إلى موسيقاه «أبو علي»، فإنّني سرعان ما عرفت أية عبقرية يمتلكها زياد في التعبير عن إنسان يشعر بالتمزق والقهر، ويؤلمه سحق الكرامة... لا يمكن لمن يستمع إلى زياد أن يبقى على حاله، أن يرضى بالذل والقهر وسحق الكرامة. إن من يتماهى مع موسيقى زياد ومسرحياته وكلماته، تزول الغشاوة عن عينيه، وتُفتح طاقة نور في روحه المعتمة. إنه يدلنا على إنسانيتنا المطمورة في وحل الخوف واليأس، ويوقظ فينا بهاء الإنسان المتعمد بنور الحرية والكرامة. إنه يدعونا إلى أن نشاركه ليس معرفة ذاتنا فقط بل تحقيقها، أن نعيش بكرامة، ألا نرضى الذل والقهر، وأن نعرف أنه يمكن للعين أن تقاوم مخرزاً إذا كانت تلك العين هي نافذة لروح حرة شجاعة.

إن زياد الرحباني هو القدوة لجيل من الشباب التائه والذي يعاني أقسى أنواع الظلم والتهميش والفقر الروحي والمادي. إنه مثال لرجل مسكون بثورة الكرامة والتواضع وتقديس الحياة الكريمة، وهو رغم سخريته اللاذعة وكلامه المقتضب فإنه مشحون بالتزام عال تجاه الأصالة. إن كل طاقاته مجندة لخلق مستوى أرقى وأكثر إنسانية وعدالة للحياة. وهو مترفع عن هدر أي جهد في الرد على من ينتقده ويحاول تشويه صورته... إنه يعلمنا كيف يمكننا تجاوز أنفسنا وظروفنا لأنّه هو ذاته تجاوز ظروفه وتحدى مجتمعاً متمرساً في أفكار ومحسوبيات ظالمة وخاطئة، مؤمناً بالإنسان وبموهبته الأصيلة، معطياً كيانه للفن ضارباً جذوره في وطن استثنائي هو الموسيقى والكلمة، كلمة الحق...

شكراً زياد لأنك موجود في عالمنا، شكراً لأنك القدوة الحقيقية لجيل من الشباب المُتعب الذي يفتقر قدوة...

شكراً للإعلامي غسان بن جدو الذي نجح في جعل مبدع مثل زياد . يعرف كيف يخفي روحه عن الناس . في أن يكشفها لنا في حوار أكثر من رائع.

* كاتبة وروائية سورية

الأغلبية الصامتة والناطقون باسمها

(قطر تحديداً). في المقابل يحافظ هؤلاء على بقاء الدورة الاقتصادية في أماكن هيمنتهم ولو في حدّها الأدنى. وهذا يتطلب الإبقاء على شعرة معاوية بينهم وبين النظام الذي يقاتلونه بضراوة. أيضاً هنالك العمولات التي يدفعونها لأطراف استخبارية (رسمية) بعينها لقاء تسهيل عملية تهريب السلاح وأشياء أخرى لا نعرف عنها الكثير اليوم. كلّ هذا الفساد الموازي قائم ويحدّثونك عن فقدان النظام للموارد الأساسية التي تغذي آلته الحربية الفتاكة! طبعاً ما يتدفّق على المعارضة من أموال طائلة لا تجري الاستفادة منه كما يفعل النظام مع الأموال التي تتدفّق عليه من إيران والعراق وباقي الحلفاء. وهذا أيضا من الأسباب التي تفسّر قدرة ماكينة النظام على المجابهة، رغم الخسائر الفادحة التي لحقت بها في الآونة الأخيرة (خصوصاً في ادلب وريفها). يحقّ للموالين طبعاً أن يغتبطوا بذلك، لكن يحقّ لنا أيضا أن نبدي قرفنا من هذا الاستعراض المبتذل للقوة، ومن قدرة كلّ من النظام والمعارضة على إيقاع هذا القدر من التدمير في البنية الأساسية للبلد. إذ لا معنى يذكر للانتصار أو الهزيمة عندما يكون الشعب أو جزء كبير منه هو من يدفع الثمن. فسيطرة المعارضة على ادلب ودير الزور وريف دمشق الشرقي ليست انتصاراً لها ولجمهورها، بقدر ما هي انتصار لمن يموّل جهدها الحربي. وكذا الأمر مع النظام و«سيطرته» اليوم على دمشق المدينة وحمص ودرعا وحماه و..الخ. لم يعد ممكنا بعد كلّ هذه التحوّلات في اقتصاد البلد الكلام عن صراع بين طرفين. في رأيي أنهما الآن «طرف واحد». طرف يمد يده إلى الخارج سواء أكان قطرياً أم سعودياً أم روسياً أم ايرانياً ليقبض منه عمولة الإبقاء على الحرب قائمة ولو «في حدودها الدنيا». المهمّ ألا توجد أرضية ممكنة لبناء تحالف طبقي مضاد للتحالف الذي نهب البلد بالأمس، ولا يزال يفعل اليوم، ولكن هذه المرة بالتواطؤ مع المعارضة والتخادم القذر مع جناحها الخليجي تحديداً.

*كاتب سوري

غسان عيد*

منذ بداية الثورة/ المؤامرة في سوريا، يؤكد كل من طرفي الصراع أنّه يمثل الأغلبية الصامتة، ويخوض المعركة باسمها ونيابة عنها. وفي الوقت نفسه، تتعرض هذه الأغلبية للابتزاز والاستفزاز من قبل الطرفين، للخروج عن صمتها وحسم الصراع سريعاً.

لكن هذه التسمية لم تأت من فراغ، وعلى عكس محاولات تصويرها، ستبقى هذه الأغلبية صامتة، فهي ليست صاحبة موقف إيديولوجي (بالمعنى السياسي) كما هو حال المتحاربين

> تؤيد الاغلبية الصامتة أحد طرفي الصراع لأنه الأقل تهديداً لشرط بقائها

والمتحزبين لهم، وبالتالي لا تنخرط مباشرة في العنف الدائر. ومهما تصاعد هذا العنف تستمر عجلة حياتها بالدوران دونما توقف، محاولة التأقلم مع المستجدات التي يفرضها الصراع. ولو كانت هذه الأغلبية منحازة كلياً لأحد الطرفين كما يدعيان، لما وجدنا مئات الآلاف من السوريين لاجئين في الدول المجاورة، وعدداً أكبر من ذلك نزح داخلياً . بينهم الكثير ممن يستطيع القتال لكنه لا يفعل . وذلك على الرغم من تعرض هؤلاء للآثار السلبية المباشرة للصراع، وهو ما يجب أن يدفعهم تلقائيا ليصبحوا جزءا منه، لأنّهم يحمّلون أحد الطرفين على الأقل مسؤولية ما آلت إليه أحوالهم. لكن ذلك لا يحدث لأن المحدد الأساسي لسلوك الأغلبية هو بيولوجي، يتلخص بالبقاء والاستمرارية، وهي محور نشاط النوع البشري. وبغض النظر عن التسميات، فإنّ الصراع سيحدد منظومة العلاقات الاقتصادية والاجتماعية التي تحكم سوريا. هذه المنظومة تشكل إطاراً لكيفية تحقيق الأغلبية بقاءها واستمرارها. وعلى عكس المتصارعين المؤدلجين، فإنّ الأغلبية ذات عقل نقدي تتعاطى ببراغماتية عالية مع الصراع وتطوره ونتائجه، فهي تركز على إيجابيات الطرفين . يتم تحديد الإيجابيات هنا بقدر ما تساهم في تحقيق البقاء، ولاحقاً تحسين شروط هذا البقاء ـ وهذا ما يجعلها قادرة على التعامل مع المنتصر في الصراع، لأنها ستركز على إيجابياته تلك فقط.

وإذا كانت هذه الأغلبية لا تنخرط مباشرة في الصراع، فهذا لا يعني أنها منعزلة عنه، أو ليس لها موقف من أطرافه، بل هناك ضمن الأغلبية مواقف في غاية التنوع والتدرج تنحصر بين موقفين حديين (مؤيد – معارض). إلا أن مفهوم التأييد والمعارضة ـ بعد هذا الوقت الطويل من العنف والدمار ـ ناجم عن تفاعل سلبي مع الصراع، وليس عن تفاعل إيجابي. بمعنى أنّها عندما تؤيد أحد طرفيه فهي تؤيده لأنّه الأقل تهديداً لشرط بقائها، الذي لا يتم من دون استقرار. وبالتالي عندما نجد متعاطفاً مع النظام ضمن هذه الأغلبية، فلإنّه يعتبر أنّ المعارضة كانت السبب في إطاحة الاستقرار كأساس في سعيه للبقاء، على الرغم من كل انتقاداته الأخرى للنظام بغض النظر عن أهميتها. وبالمقابل فإنّ متعاطفاً مع المعارضة يعتبر أنّ النظام قام بتهديد عوامل البقاء التي كانت متوافرة قبلاً، نتيجة سياساته الاقتصادية والاجتماعية، ولاحقاً أطاح الاستقرار باتباعه الخيار الأمني.

إنّ الأغلبية من هذا المنظور ليست ثورية على الإطلاق بل إصلاحية، بمعنى أنّها لا تسعى إلى التغيير الجذري لظروف حياتها، مهما كانت التوقعات والوعود مرتفعة من هذا التغيير، بل تفضل تغييراً تدريجياً وهو ما قد يشكل أحد عوامل نشوء الديكتاتوريات.

إنّ مواقف الأغلبية من المتحاربين ليست ثابتة بل تتغيّر تبعاً لتطورات الصراع، فعندما يحقق أحد الطرفين تقدماً على الأرض، يصبح هو الضامن للاستقرار وفق شروطه، وتبدأ الأغلبية عملية تأقلم مع هذه الشروط المستجدة، لتبدو وكأنها تؤيد من يفرض هذه الشروط، الذي بدوره يحاول تصوير هذا التأقلم وكأنه تبنّي الأغلبية لإيديولوجيته. وكلما اقترب الصراع من لحظة الحسم بين منتصر وخاسر، ستبدو الأغلبية وكأنها ساندت المنتصر منذ البداية.

سيبقى كل من طرفي الصراع مصراً على تنصيب نفسه ناطقاً باسم هذه الأغلبية، في محاولة لإضفاء الشرعية والبعد الأخلاقي على ما يمارسانه بحقها، معتبراً أنّ خسارته خسارة لها. ولكن أياً كان الخاسر في هذا الصراع، فالأغلبية لن تتأثر كثيراً بخسارته. إنّ خسارتها الوحيدة تكمن في ما تشهده البلاد من فقدان هذه الأغلبية لحيواة أفرادها. فضلاً عن أن الصراع بعد كل هذا العنف، امتلك ديناميكية جديدة، تجاوزت العناوين العريضة التي وضعها المتحاربون في البداية، سواء في الحرية و الكرامة، أو مواجهة المؤامرة والحفاظ على استقلال البلاد. كما أصبح للمتحاربين أسبابهم الذاتية للقتال بعد أن كانت موضوعية، ليصبح ادعاء أي منهم النضال لصالح حياة مترفة للأغلبية الصامتة، لا يمتلك صلابة على أرض الواقع، إذ أصبح مجرد البقاء فيه ترفاً بالنسبة لقسم كبير من هذه الأغلبية.

* صحافي سوري